



ملّ أبو العلاء دنيانا؛ ملّ تلك الساعات التي يركبها، مجبراً، كالمطايا، إلى حتفه. كانت حياته في محابسه الثلاثة- العمى، والبيت، والجسد- قلقاً، وادعةً، زاهدة. اتسم عصره بعنف شديد، لا سيما في سوريا، التي تقاسمها الفاطميون والعباسيون والبيزنطيون - والسلاجقة الأتراك على الأبواب؛ والحكام المحليون يتبعون الأقوى. صراعات طائفية ودينية، بين الشيعة والسنة وكنيسة القسطنطينية؛ والمعرة، وجارتها الكبرى حلب، في قلب المعمة. ولكن الناس، على الرغم من كل ذلك، تابعت حياتها، وتجارها، ودراستها. وشاعرنا، بخبث لا مثيل له، من محابسه، اطلّ على ما تخبئه قلوبهم:

إِذَا فَرَعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا      وَإِنْ أُمَّتًا فَمَا تَخْلُو مِنَ الْقَرَعِ  
وَشِيمَةُ الْإِنْسِ مَمْرُوحٌ بِهَا مَلَلٌ      فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرٍ وَلَا جَرَعِ

والضجر يُرجعه النقاد الغربيون إلى عالمهم المغلق، ويجعلون بطله بودلير، الذي استنبت أزهار الشر منه، كأن الحداثة وحدها اخترعته. ولكن شيخنا يعرف الإنسان أعمق منهم، ورأى - ببصيرته الإلهية- الضجر كصفة إنسانية أصيلة، لا محيد عنها:

تَقْضِي الْمَآرِبَ، وَالسَّاعَاتُ سَاعِيَةً،      كَأَنْهَنَ صِعَابٌ، تَحْتَنَا، دُلُّ  
وَقْتُ يَمُرُّ، وَأَقْدَارٌ مُسَبَّبَةٌ،      مِنْهَا الصَّغِيرُ، وَمِنْهَا الْفَادِحُ الْجَلَلُ  
وَمَا فَتَنْتُ، وَأَيَّامِي تُجَدِّدُ لِي،      حَتَّى مَلَلْتُ، وَلَمْ يَطْهَرُ بِهَا مَلَلُ



ما الذي فعله بوقته الثمين، في ضجره المديد؟

كتب الشعر، وتسلى. حوّل خوفه، وملله، وحيرته، وتشاؤمه، إلى مجموعة مدهشة من الأشعار؛ فغدا ضجره من دنياه مسلياً جداً، ومثمراً، ومتألقاً. في اللزوميات، يعيد شيخنا تعريف معنى الشعر والأدب: محاولة مستمرة، متواصلة، أزلية، لطرح أسئلة عن معنى الكون، والحياة، والموت، والكتابة. تترابط الرؤى الميتافيزيقية، والتعدد الديني، والأبعاد السياسية المتوحشة، في أسئلته: يتحول الشعر إلى ساحةٍ تتصارع فيها الأجوبة، وتتصالح.

ضجره يجعله يعود مراراً إلى الموت/معنى الحياة. يصيغ المعري رؤاه بطرق مبتكرة، دقيقة، نافذة. وفي كل منها، يستشعر المرء أمران متلازمان: ملله وكرهيته للحياة، مع محبته لفكرة الشعر القادر على رسم صور ناصعة لذلك الملل.

يستعير المعري صوراً قديمة، ليعيد تأويلها وتجسيدها بجدةٍ جسورة؛ فيعكسها لتصبح الحياة هي المشكلة، وليس الموت.

الحياة حلم، صورة موجودة منذ حضارات الرافدين الأقدم، وشغلت البشرية كثيراً. يستعيد المعري، بمهارة لئيمة، ليغير معنى الحلم إلى سهاد:

وَمَوْتُ الْمَرءِ تَوْمٌ طَالَ جِدًّا      عَليهِ، وَكُلُّ عَيْشَتِهِ سُهادٌ

وصورة الحياة كجسر بين عدمين -المتداولة منذ أيام الزارداشتيين والغنوصيين- ينقضها، ليجعل الحياة فقداً بين الجسور:



حياة كجسر بين موتين أولٍ      وثانٍ، وفقد الشخص أن يُعبّر الجسر

أيضاً، يجعلنا المعري أنفاساً للأرض، تستردها بعد فترة قصيرة، لتكون حياتنا برهة عابرة:

أرى الناس أنفاس الثرابِ فظاهِرُ      إلينا، ومردودُ إلى الأرضِ راجِعُ

أو نكون زرعاً، ينبت، ثم يُحصَد:

وأبيض ما اخضرَّ من تبت الزمانِ بنا      وكلُّ ررعٍ إذا ما هاجَ محصودُ

أو نكون ركاب المطايا، والساعات تركض بنا:

مطيتي الوقت الذي ما امتطيتُهُ      بوذي، ولكنَّ المهيمين أمطاني



أو سفن لا تصل الشيطان:

سَفَائِنُ بَحْرِ مَا لَهَنَّ مَرَاسِي

تَسِيرُ بِنَا هَذِي اللَّيَالِي كَأَنَّهَا

والحياة حرب، كلنا قتلها:

إِلَّا الْجِمَامُ، وَكُنَّا أَوْزَارُ

وَالْعَيْشُ حَرْبٌ لَمْ يَصْعَ أَوْزَارُهَا

لذا، يحتفي شيخنا بالموت، ومنتظره. فالحياة، عموماً، أسر؛ أما الموت، فحربة:

أَطْلِقْ أَسِيرَكَ فَالْحَيَاةُ إِسَارُ

يَا رَبِّ عَيْشُهُ ذِي الصَّلَالِ حَسَارُ

فحبسنا كحبس الخمر كي تعنق، لا بد أن تُشتري يوماً:

فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تَكُونَ سِبَاءً

وَأَرْوَاخُنَا كَالرَّاحِ إِنْ طَالَ حَبْسُهَا



أو كعصافير في قفص:

يا طائراً من سُجونِ الدهرِ في قَفَصٍ لُتْدَبَحَنَّ فَلَا سِجْنَ وَلَا شَرَكُ

بل هذه الحياة صيام طويل، والموت إفتار بهي:

أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإيَّما فِطري الحِمامُ ويومَ ذاكَ أُعَيِّدُ

مرة واحدة، وبعنف يتسم برقة، يتفائل المعري بما بعد الموت- بعد أن يشبَّهنا بالبدن، والزرع، والمسك:

المرءُ كالبدنِ بيئاً لآخِ كاملَةً أنوارُهُ عادَ لِلنُّقْصانِ قَامَتْحاً

وَالناسُ كَالزَّرْعِ باقٍ في مَنابِتِهِ حَتَّى يَهيجَ وَمَرَعِيٌّ وَمَا لِحِقا

عَلَّ البلى سَيُفِيدُ الشَّخْصَ فائِدَةً فَالْمِسْكُ يَزْدادُ مِن طيبٍ إِذا سَحِفا



ولكن، ما الذي يفعله المعري في دنياه؟ كيف يدبّر أموره، بين السفن والمطايا والزرع والجسور، وكلها تؤدي إلى موت يخافه ويرهبه ويتمناه؟ كيف عاش، في دنيا لا تقدّم له إلا الحروب، والخداع، والكذب؟

يتمنى لو أنه لا يحس، أو لو عاش كالطير:

فَيَا لَيْتَنِي حَجْرٌ لَا يُحْسِنُ      سُنُّ بِالْحَطَبِ أَوْ طَائِرٌ مَا احْتَكِرَ

إِذَا مَا أَنْارَ صَبَاخُ عَدَا      وَإِنْ جَنَّ لَيْلٌ عَلَيْهِ وَكَّرَ

وشبخنا، الذي خبر الحياة، لا يطلب المجد، ولا الشهرة، ولا الثروة؛ وبهرب من كل ما تعرضه عليه الدنيا، من كل ما يجعل الناس تكذب وتسرق وتخدع:

فَعِشْ وَإِدْعَا وَإِرْفُقْ بِتَنَفْسِكَ طَالِبًا      فَإِنَّ حُسَامَ الْهِنْدِ يَنْهَكُهُ الصَّقَلُ

يمتلئ قلب شيخ المعرة بالرحمة: يطالب كل الناس بأن يعيشوا مثله، بألا يلتفتوا إلى ما تعرضه عليهم الدنيا من دناءات، ومكر، وأطماع. بل في قصيدة عجيبة، متفائلة وحزينة في آن، يجعل المغلوبين أصحاب الحق، والمعرفة، واليقين. كأنه، في ظلمته الطويلة، قرر، لمرّة، أن يتسم لنا، في قصيدة لا تناسب لزومياته وشخصيته وقناعاته كثيراً، ولا شعره المتناقض، المتصارع مع نفسه، الكاره لذاته:

يَعَالِجُ بَاتَ هَمُّ النَّفْسِ يَعْزِلُجُ      فَهَلْ أَسِيَتْ لِعَيْنٍ حِينَ تَخْتَلِجُ



قَدِ عَيْلَ صَبْرِكَ وَالظَّلْمَاءُ دَاجِيَةٌ  
فَإِصِيرِ قَلِيلاً لَعَلَّ الصُّبْحَ يَتَبَلَّجُ  
لَا يَعْرِفُ الدَّهْرَ إِلَّا مَعَشَرَ غَلْبُوا  
فَمَا اسْتَكَانُوا، وَلَمْ يُزْهَوْا وَقَدِ فُلَجُوا  
الْأَلْمَعِيُونَ إِنْ ظَنُّوا وَإِنْ حَدَسُوا  
ظَنَّنْتَهُمْ بَيِّقِينَ وَاصِحِّ تَلَجُوا

(في بعض النسخ، نجد المحققون يثبتون: "إلا معشرُ غلبوا"، كأنها قصيدة فخر. وهذا يعارض الجملة التالية: "فما استكانوا"، التي تصبح ثقيلة، وأقرب إلى الشعراء التقليديين، لو صحَّ قول المحققين. ويعارض بقية البيت، الذي يوضح المعنى أكثر، لأنه يطرح الاحتمال الثاني: لا يزهون بأنفسهم حين يفلجون، أي يحصلون على مرادهم. كما يعارض الأبيات السابقة في القصيدة؛ والأهم، يعارض كل فكر المعري. يبدو لي أن معشر المعري لا يستكينون عندما يُغلبون، ولا يزهون عندما يَغلبون. وليسوا أولئك الذين يغلبون دوماً، لأنهم يسايرون الدنيا ويرفعون سيوفهم، ويمتثلون كل ما حاربه المعري طيلة حياته!)

والمعري يشفُّ في تلك الحياة: حروب، وأطماع، ونصابون، وفقهاء وقسس وفلاسفة، لا تترك للمرء مثقال ذرة من راحة. يشف في تلك الحياة، ذلك الذي رسمها بصدق، وصراحة، وروعةٍ شجية:

عَزَزْتَ وَرَبُّ النَّاسِ أَعْطَاكَ عِزَّةً  
وَأَصْبَحْتُ هِيناً كُلُّ شَيْءٍ يَعْزُّنِي  
(يُعزّه الثانية، بضم العين: إذا غلبه)  
كَتَبْتُ صَعِيفٍ لَمْ يُؤَازِرْهُ عَيْرُهُ  
فَأَيُّ تَسِيمٍ هَبَّ فَهَوَ يَهْزُنِي



ربما، كل الأدب لزوم ما لا يلزم، أو هكذا يخيّل لي. حوّلْتُ بصيرهُ شيخ المعرة الممل والتشاؤم إلى جمال شعري، إلى لعب، إلى تسلية، إلى صورٍ حسية وبصرية: وكل هذا، لزوم ما لا يلزم. كأن تهزّ نسائم ضجرة أرواحنا، نحن المغلوبين، وبقيننا يختلج: وهذا، أيضاً، لزوم ما لا يلزم.

الكاتب: عدي الزعبي